



مقياس: مدخل إلى علم الآثار 1

المحاضرة الثانية: نشأة علم الآثار

تطور فكرة أن علم الآثار هو علم حديث وأنه يعود إلى بعض الشعوب دون غيرها؛ وهذا غير مقبول لأنه يتناقض مع طبيعة الإنسان وغرائزه، هذا الإنسان المتنقل الذي يبحث عن تلبية حاجياته ومعارفه مما يستوجب التعرف على تجارب سابقيه إنهم منها وتطويرها، ولا يكون هذا إلا من خلال السؤال والاستفسار والاستطلاع ومحاولة معرفة المجهول، هذا ما يسمح بالقول أن علم الآثار قديم بقدم وجود الإنسان على سطح الأرض، أما الإهتمام بعلم الآثار فقد بدأ منذ العصور القديمة وبمعنى أصح منذ أن بدأ الإنسان في البحث عن أمجاد أسلافه ومعرفة تاريخهم والحصول على القطع الأثرية ذات القيمة الفنية إلى جانب الكنوز المطمورة في باطن الأرض بأسرع وأرخس الوسائل دون الإهتمام بتوثيقها وتحليلها وظهر ذلك منذ العصر الفرعوني حيث كان لصوص الآثار يستغلون فترة ضعف السلطة أو إنشغالها بمختلف المشاغل يقومون بنهب مقابر الملوك والأمراء، إلى جانب هذه الأعمال السلبية توجد العديد من المحاولات الإيجابية التي حفظها التاريخ المصري وتتمثل خاصة في ما قام به ملوك وأمراء مصر الفرعونية من أعمال بحث وترميم وصيانة لآثار أسبقيه، في هذا المجال يذكر ما قام به الفرعون أمنحوتب الثاني (تحتمس الرابع) في كشفه عن تمثال "حور- أم - أخت" وفي الألف الأولى قبل الميلاد وبالتحديد خلال القرن السادس قبل الميلاد ببلاد الرافدين قام بختنصر و نابونيد من آخر ملوك بابل بحفريات وعمليات ترميم في مدينة أور حيث عثر الملك نابونيد على مخطوطات قديمة لأسلافه الأوائل منها ما هو متعلق بالملك حامورابي.

وفي بلاد اليونان يمكن اعتبار هوميروس الذي عاش خلال القرن الخامس قبل الميلاد أب علم الآثار ومؤسسه الحقيقي؛ فهو أول من ضمن كتاباته معطيات ووصف هام لمعالم أثرية، حيث وصف بعض الأماكن والأحداث التي سبقت عصره إبان الألف الثالثة قبل الميلاد في ملحمتي الإلياذة و الأوديسا، وزاد الإهتمام بالآثار خاصة عند المؤرخين مثل هيرودوت الذي قام برحلات في بلاد مصر جنوبا حتى أسوان وكتب عن التحنيط عند قدماء المصريين وعن الأهرامات، وبعض علماء الإغريق ممن سجل ملاحظات اثنوجرافية جيدة وشاهدوا مجموعات من القبائل المعاصرة لهم.

وفي أواخر القرن الأول قبل الميلاد تأتي كتابات سترابون التي تعد أحد الخطوات الهامة لعلم الآثار الوصفي من خلال كتابه الجغرافيا المتكون من سبعة عشر جزء، وهو وصفا كاملا لتاريخ واقتصاد وجغرافية البلدان التي تقع في نطاق الإمبراطورية الرومانية مبينا كل ما هو مميز في عادات الشعوب وتقاليدها وطبيعتها وحيواناتها ، يأتي بعد ذلك المؤرخ الإغريقي تيكوديدس الذي قدم وصفا لتاريخ الإغريق ، وكتب بلوثوك العديد من المؤلفات مثل "الحياة المقارنة والأخلاق"

خلال القرن الثاني ميلادي وضع الرحالة بوزانياس كتاب "وصف اليونان"؛ كان بمثابة دليل للسياح الأجانب الذين يفتدون إلى بلاد اليونان، ولم يقتصر الإهتمام بالآثار على الكتاب فقط بل حتى الملوك والأباطرة، فبالإضافة إلى نابونيد ملك بابل نجد أيضا يوليوس قيصر الروماني الذي كان مولع بجمع التحف القديمة خاصة الأحجار الكريمة المنقوشة، ويعد الإمبراطور الروماني هادريان أول من أسس متحف بالعالم خاص بالهندسة المعمارية ومتحفا آخر خاصا بالنحت حيث قام بتجديد وتزيين منشآت معمارية كبيرة إغريقية، وشيد قصره على الطراز اليوناني وضم فيه مدرسة وأكاديمية ورواقا لحفظ الرسومات ومسرحا إغريقيا.

في العصر الإسلامي نجد في القرن آن الكريم الكثير من القصص والأخبار عن الأمم السابقة وتفاصيل حياتهم، وأيضا من كتب الكتاب والأمراء والسلاطين؛ من الكتاب نجد خاصة الرحالة والجغرافيين مثل: ابن خردادبة وابن حوقل "صورة الأرض" والمقدسي والإدريسي.....

ومع بداية النهضة الأوروبية حيث سيطر العلم التجريبي والمذهب الطبيعي واستعدت الكنيسة، بدأ الإهتمام بالآثار خاصة الشاخصة منها كالمعابد اليونانية والمدرجات الرومانية، ومن الأسباب التي أدت إلى الإهتمام بالمادة الأثرية البحث عن الثراء السريع، حب الإطلاع والفضول، الحصول على وسائل التسلية ومظاهر الرفاهية، الوصول إلى المعرفة من خلال المادة الأثرية، بدأ الإهتمام بدراسة الآثار بإيطاليا خلال القرن الرابع عشر من قبل سيرياك دانكون (1397-1451م) الذي كان مهتما بالكتابات والنصوص القديمة وقد سجل ما وجده في ستة مجلدات، وفي 1478م أنشئت أول جمعية لعلماء الآثار في روما وأقيمت أول محاضرة حولها من قبل العالم الطبيعي بومبونيوس ليتوس.

خلال القرن السادس عشر إزدادت الرغبة لدى الناس بالإهتمام بدراسة آثار الأمم السابقة حيث تعرف الإيطاليين والرحالة من مختلف الأقطار خلال زيارتهم لإيطاليا وبلاد الإغريق وآسيا الصغرى ومصر على آثار العصور الكلاسيكية والشرق الأدنى التي لقيت إعجابا ورواجا كبيرا، وأخذ العلماء يجمعون التحف والآثار وحولوا منازلهم إلى متاحف فأنصبحت الأبحاث حول الآثار الإغريقية والرومانية وكان للعلماء الفرنسيين الريادة في ذلك خاصة نيكولا يرسك (1580-1637م)، ثم تلتها البعثة الفرنسية التي أرسلها لويس الثالث عشر إلى بلاد اليونان برئاسة العالم لويس ديشاي وظلت تعمل حتى عصر لويس الرابع عشر، في هذه الفترة تم إكتشاف مدينتي بومبلي وهيركيولانيوم أواخر القرن السادس عشر اللتان دمرتا أثناء ثوران بركان فيزوف عام 79م وسبعون ميلادي ليبدأ التنقيب في هيركو لانيوم عام 1709م، كما أخذ الرحالة الأوروبيون يتجولون في وادي الرافدين وزاروا التلن الكبيرين بالقرب من الحلة في بابل وفي الموصل على إعتبار أنهما موقعا مدينتي بابل ونيوى أين جمعت أوني فخارية وقطع طينية وبقايا الواح مغطاة بكتابة بالخط المسماري.

خلال القرن السابع عشر قام الفرنسي "جاك سبون" برحلة كبرى إلى الشرق مسجلا ما شاهده الكتاب المذكور سابقا وألف كتاب آخر بعنوان "مزيج من علوم الآثار" أقترح فيه تقسيم الدراسات القديمة إلى ثمانية أنواع والتي تعتبر أول دراسة تصنيفية نوعية معروفة في التاريخ، جاء بعده الراهب "مونتوكون" صاحب كتاب "العمور القديمة مشروحة وممثلة بالصور" قدم فيه شرحا وصورا وهو أول مؤلف يجمع بين الحضارتين اليونانية والرومانية ويعتبر اللبنة الأولى في مجال علم الآثار الكلاسيكية.

وفي مصر زار الرحالة الأوروبيون القاهرة وأهرامات الجيزة التي وصفها البريطاني ساندس عام 1610م في كتابه "رحلات RAVELS" وركز على طريقة دخوله إلى الهرم الأكبر وبين أنه مقبرة أحد الملوك وليس مستودع الكنوز، وفي عام 1638م زار البريطاني "جون غريفس" مصر ووضع كتاب "تخطيط الأهرامات".

في القرن الثامن عشر تم إكتشاف حضارات أقدم من الحضارتين الإغريقية والرومانية وبدأ يتوسع مجال البحث الأثري خاصة بعد إكتشاف مراحل ما قبل التاريخ، لتبدأ الحفريات في كبريات المدن الأثرية، وفي عام 1732م ظهرت جمعية "محبى الفنون" التي أسسها أهل العلم والرحالة الذين قاموا بعدة رحلات في إيطاليا واعجبوا بما شاهدوه فبدأوا بالدعوة إلى الإهتمام بهذه الأعمال، وفي الفترة ما بين 1750 – 1880م تجدد الإهتمام بالدراسات الكلاسيكية وتم إكتشاف آثار العالم الكلاسيكي من قبل علماء فرنسيين والم انجليز حيث بدأ كل من الفنان البريطاني جيمس سنيورات (1716 – 1786م) بجمع التحف، والمعماري نيكولا ريفت (1720 – 1804م) في رسم آثار أثينا وقياسها وتسجيلها في الفترة ما بين (1751-1753م)

ودونا نتائج ذلك في كتابهما "أثار أثينا The Antiquities of Athens"، كما زار العالم الدانيماركي كارستن نيبور "خرائب بارسيبولس" عاصمة الدولة الإخمينية 1765م، وأعد نسخا للكثير من النقوش المسماوية التي وجدها دون أن يعرف أنها تمثل ثلاثة أنواع من الخطوط، وبعد فك رموزها تبين أنها مكتوبة باللغة الفارسية القديمة واللغة العلامية واللغة البابلية، وفي عام 1755م وضع تشارد بوكوك "كتاب رحلات في مصر Travels in Egypt" وصف فيه أهرامات سقارة ودهشور وهرم جوسر المنح و مصراطب الجيزة وبين أنها قبور أمراء ونبلاء، خلال الفترة 1763-1768م إتقلت الكثير من التحف الرومانية إلى بعض عواصم أوروبا خاصة منها باريس ومدريد، كما صدر كتاب " تاريخ الفنون History of arts " ليوخايم وينكلمان الذي إعتد بشكل أساسي على ما هو موجود بروما وكان أول من درس الفنون القديمة دراسة تاريخية ولقب بـ: "أبو الآثار".

دائما خلال القرن الثامن عشر يلاحظ تقيير الإكتشافات والإهتمام بالآثار الكلاسيكية على ذوق وفن التصميم في أوروبا، وقام المتحف البريطاني بلقنتاء مجموعة من المزهريات الإغريقية التي خص السير وليام هاملتون الذي كان سفيرا لبريطانيا في نابولي عام 1772م، وألف كتابا بعنوان "التحف الأتروسكية والإغريقية والرومانية Antiquites Etrusques Greques et Romaines" الذي ظهر خلال عامي 1766-1767م وهو الذي إعتد عليه يوشع ودجوود في تصميم قوارير إغريقية وأتروسكية وبومبية؛ وهي لا تزال موجودة في إسطنبول دشير بيوطانيا تحت إسم أتوريا، وأثناء حملة نابوليون على مصر عام 1798م قام العلماء الفرنسيون الذين رافقوا الحملة بوصف وتسجيل جميع الآثار الظاهرة على سطح الأرض في مؤلف

بعنوان "وصف مصر" ونقلوا بعضها إلى متاحف بأوروبا، ومن بين أهم القطع التي عثر ع نها أثناء هذه الحملة "حجر رشيد" الذي إكتشفه جندي فرنسي صدفة خلال الحفر لإقامة حصن قرب الإسكندرية؛ والحجر عبارة عن لوح من البازلت الأسود بطول 114 سنتيمتر وعرض 72 سنتيمتر وسمك 28 سنتيمتر؛ يحمل نقشا بثلاثة أنواع من الخطوط، صبت له ثلاثة قوالب من الجبس على شاكلته وأرسلت الى باريس، وأثناء الإحتلال البريطاني لمصر أستولوا عن هذا الحجر ونقل إلى المتحف البريطاني.